

المقاطعة بين الواجب الدينى والردع الدنيوى

بقلم: أ.د. / محمد عبد الحليم عمر (*)

تعتبر المقاطعة من أهم الأسلحة فى الصراعات التى تقع بين الأمم والدول قديماً وحديثاً، وفى هذه الأيام وجدنا إجماعاً شعبياً على مقاطعة الدول التى أساءت صحفها وكتابها لسيدنا رسول الله ﷺ وفى هذه الكلمة نحاول التعرف على موقف الدين من هذه المقاطعة ونرصد آثارها مع محاولة لرسم صورة لها فى المستقبل حتى نؤدى واجبنا تجاه رسولنا الكريم ﷺ ونقدم دليلاً عملياً على محبتنا له، وسوف نوجز الكلام على كل ذلك فى الفقرات التالية:

أولاً: مفهوم المقاطعة وأهدافها وأنواعها.

ثانياً: المقاطعة فى الواقع العملى.

ثالثاً: الموقف الإسلامى من المقاطعة.

رابعاً: الحقائق والدروس المستفادة من المقاطعة التى قام بها المسلمون رداً على

الاساءة للنبي الكريم ﷺ وكيفية تفعليها.

أولاً: مفهوم المقاطعة وأهدافها وأنواعها

أ - المقاطعة فى اللغة: من قطع وقطيعه، وهى الهجران والصد، وترك البر والإحسان. وفى الإصطلاح السياسى: عدم التعامل مع الغير - دولة أو فرداً اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً، أو هى إحدى وسائل الضغط الجماعى التى تقوم بها مجموعة لرد عدوان أو لتحقيق أهداف سياسية .

ب - أهداف المقاطعة: وتهدف المقاطعة بشكل عام إلى ما يلى:

(*) أستاذ المحاسبة، مدير مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامى - جامعة الأزهر.

١ - تقليص أو الإجهاز على الفوائد التي يحققها الخصوم بالتعامل معنا من أجل حرمانهم من المكاسب التي يحققونها نتيجة هذا التعامل

٢ - إجبار الخصوم بالتوقف عن اعتدائهم وردعهم عن التفكير في محاولة تكرار هذا الاعتداء.

ج- أنواع المقاطعة:

وتتعدد أنواع المقاطعة إلى:

١ - المقاطعة الاقتصادية: وتكون بوقف الاستيراد والتصدير من وإلى الدولة أو شراء منتجاتها وعدم تبادل الخدمات مثل خدمات السفر والسياحة والخدمات المالية والنقل ومنع تحرك رؤوس الأموال والأيدى العاملة ووقف المنح والتبرعات والقروض، وعقود الترخيص.

٢ - المقاطعة السياسية، سحب السفراء وتجمد أو تعليق عضوية الدولة في المنظمات.

٣ - المقاطعة الاجتماعية والثقافية: مثل منع الزواج بين مواطني الدولتين وكذا الاشتراك في المؤتمرات الدولية والمحافل الرياضية والثقافية.

إلى غير ذلك من صور المقاطعة التي تضيق على الدولة المعتدية وتجعلها في حالة زعزعة وتضر بمصالحها في جميع المجالات.

ثانياً، المقاطعة في الواقع العملي - التاريخ والمعاصرة -

المقاطعة ليست خروجاً على الإنسانية ولا هي دعوة ينادى بها المسلمون فقط ولكنها من أهم الأسلحة التي تستخدم في الصراع مع الغير التي عرفتها البشرية على مدى التاريخ وحتى الآن، نذكر نماذج منها في الآتي:

أ - المقاطعة الشاملة التي قام بها مشركوا مكة لرسول الله ﷺ وللمسلمين معه فيما هو

معروف فى كتب السيرة بخبر الصحيفة، ذلك أن قريشاً فى حربها للإسلام والمسلمين استخدمت كل الأسلحة ومنها المقاطعة لهم ولن يحميهم من بنى هاشم وبنى عبد المطلب فكتبوا بذلك وثيقة تعاهدوا فيها أن لا يناكحهم ولا يبيعهم أو يتساعوا منهم شيئاً ولا يدعوا سبباً من أسباب الرزق يصل إليهم ولا يقبلوا منهم صلحاً ولا تأخذهم بهم رافة حتى ينشأ رسول الله (عن دعوته للدين الجديد وإجبار عشيرته بتسليمه لقريش، ووثقت قريش هذه المقاطعة فى صحيفة أودعوها جوف الكعبة، والتزم كفار قريش بهذه المقاطعة ثلاث سنوات اشتد فيها البلاء على الرسول ﷺ وعلى المسلمين ومن ناصرهم حتى أنهم لجأوا إلى أكل أوراق الشجر من شدة الجوع، إلى أن جاءت عناية الله عز وجل وانتهت المقاطعة وتم إخراج الصحيفة من جوف الكعبة فوجد أنها تآكلت ولم يسلم منها إلا الكلمات التى ذكر فيها اسم الله عز وجل.

ب- المقاطعة التى قام بها الزعيم الهندى غاندى فى بداية القرن العشرين بالامتناع عن استخدام أى سلع أو خدمات من إنجلترا التى كانت تحتل الهند، ولبى الشعب الهندى دعوته للمقاطعة وكان لها أثر كبير فى حصول الهند على استقلالها ولقد استخدم الزعيم المصرى سعد زغلول المقاطعة كأحد أساليب المقاومة للاستعمار الإنجليزى لمصر.

ج- قيام الملك فيصل - رحمه الله - بالدعوة إلى وقف ضخ البترول خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣م إلى الغرب والذى كان أحد أهم الأسلحة التى سارعت بتحقيق النصر على إسرائيل.

د - المقاطعة العربية لإسرائيل ومن يناصرها التى بدأت جذورها عام ١٩٢٩م وتكرر تشكيل لجان المقاطعة بعد ذلك فى أعوام ١٩٣٦ - ١٩٣٧، ثم جاء عام ١٩٤٥ وتشكلت لجنة دائمة بموجب قرار مجلس الجامعة العربية تحولت عام ١٩٥١ إلى

مكتب دائم رئيسى مقره دمشق وله فروع فى جميع الدول العربية وفى عام ١٩٥٤م صاغت الجامعة العربية الإطار القانونى والتنظيمى لهذه المقاطعة وتضامن مع العرب فى المقاطعة أكثر من ٢٥ دولة صديقة فى العالم مما زاد من عزلة إسرائيل.

ولقد أوجعت هذه المقاطعة العربية الرسمية الشاملة إسرائيل ومن يناصرها من الشركات العالمية، قدرت فيها الخسائر الاقتصادية لإسرائيل بحوالى ٩٠ مليار دولار مما جعل الولايات المتحدة الأمريكية (نصيرة إسرائيل الأولى) تعمل على ما يسمى لديها بتفكيك المقاطعة مستغلة فى ذلك التحولات فى السياسة العالمية وصدور اتفاقيات الجات وبدعوى وقف نشاط مكتب المقاطعة لتهيئة الأجواء لمفاوضات السلام بعد اتفاق أسلو، ولقد أكد التقرير السنوى لمكتب التجارة الأمريكى الذى صدر فى مارس ٢٠٠٠م نجاح الولايات المتحدة فى تفكيك (هكذا بالنص) المقاطعة العربية لإسرائيل وبذلك ونحت وطأة شدة الآثار التى وقعت على إسرائيل من المقاطعة، تم تجميد نشاط مكتب المقاطعة التابع لجامعة الدول العربية والذى يواجه صعوبة حتى فى عقد مؤتمره نصف السنوى الذى يجرى تأجيله تبعاً منذ اتفاق أسلو، وحتى بعدما عادت الدعوة إلى المقاطعة رسمياً فى قرارات اجتماع القمة العربية بشرم الشيخ واجتماع منظمة المؤتمر الإسلامى فى قطر عام ٢٠٠٠م نتيجة تزايد الاعتداءات الإسرائيلية على الفلسطينيين، لم يتمكن مكتب المقاطعة فى عقد اجتماع لتنفيذ هذا القرار حيث لم يستجب للدعوة سوى دولتين فقط

هـ- إن الولايات المتحدة الأمريكية تقود بنفسها عدة حملات للمقاطعة ضد الدول التى تأبى الدخول فى نفوذها بعد إنهيار الاتحاد السوفيتى والمثال القريب على ذلك المقاطعة التى قادتها ضد ليبيا والسودان والعراق وأخيراً التى تلوح بها ضد إيران.

كل ذلك يدل على أن المقاطعة تمثل أحد الأسلحة الهامة فى الصراعات بين الدول والجماعات، فهل الشريعة الإسلامية تجيز المقاطعة أم لا؟

هذا ما سنتعرف عليه فى الفقرة التالية

ثالثاً، الموقف الإسلامى من المقاطعة

الأصل فى العلاقات مع الآخر فى الإسلام هو الاعتراف والتعارف والتعاون على البر والتقوى لقوله تعالى مخاطباً كل الناس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وأن لا يبدأ المسلمون اعتداء على الغير إلا ردّاً عدوان الغير عليهم حيث يقول الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وبذلك فالجهاد فى الإسلام شرع لرد العدوان وليس لابتداء الاعتداء، والجهاد درجات وأنواع منها الجهاد الإيجابى بالسلاح والجهاد بالكلمة الطيبة والجدال الحسن، ثم هناك الجهاد السلبي بمقاطعة الاعتداء وهى مشروعه يستدل عليها بالآتى:

أ - دعوة القرآن الكريم إلى عدم موالاة المعتدين حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المتحنة: ٩] فالتولى هنا معناه: النصرة والمحبة والود والبر، ومن النصرة المدُّ بأسباب القوة، والاقتصاد من أهم عناصر قوة الأمم، وبالتالي فالتعامل الاقتصادى مع الدول التى تعتدى على المسلمين يزيد اقتصادها قوة وينطوى على موالاة لهم، وهو منهى عنه بنص الآية الكريمة والقيام به ظلم.

ب - دعا القرآن إلى حصار الأعداء فى قوله تعالى: ﴿وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ [التوبة: ٥]، وجاء فى أحد وجوه تفسير ﴿احْصُرُوهُمْ﴾ امنعوهم من التصرف إلى بلادكم والدخول عليكم.

ج - عدم التعامل مع العدو تجارياً: وهو أمر اتفق عليه الفقهاء فى المذاهب الأربعة حيث جاء: «ولا يجوز الاتجار مع الحريين بما فيه تقوية لهم على المسلمين».

د - من جانب آخر فإننا مأمورون بعدم مخالطة من يسئ إلى الإسلام بالكلام حيث يقول ربنا عز وجل : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِنُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]، ويقول الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

وهنا تجدر الإشارة إلى أنه فى الموازنة بين ما تسببه المقاطعة من خسائر اقتصادية لنا وبين ضرورة المحافظة على مقدساتنا وديننا، فإن القرآن الكريم أرشدنا إلى أنه يجب تغليب ضرورة المحافظة على الدين ويعوضنا بكرمه وفضله الخسائر الاقتصادية، وهذا ما يستفاد من الآية الكريمة فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عِيلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٢٨]، فها هم المسلمون وقد خافوا بتحريم دخول مكة على المشركين أن يفقدوا مورداً هاماً من الموارد التى كان يحضرها المشركون للتجارة بمكة وخافوا العيلة، أى الفقر بسبب ذلك، فطمأنهم ربنا عز وجل بأنه سوف يغنيهم من فضله بما يعوضهم هذه الخسائر.

وهكذا يتضح أن المقاطعة مشروعه إسلامياً لمن يعتدى على المسلمين ويشدد ذلك إذا كان الاعتداء على الرسول ﷺ كما حدث أخيراً فى قضية الرسوم الرديئة والمسيئة للرسول ﷺ ولدين الإسلام وللمسلمين، وحسنا فعل المسلمون عندما قاطعوا المنتجات الدغارية، فلقد أثبتت هذه المقاطعة جدواها ومازالت، فما هى الدروس المستفادة من ذلك.

رابعاً: الحقائق والدروس المستفادة من المقاطعة التي قام بها المسلمون ردّاً على الإساءة للنبي الكريم

يمكن رصد أهم الدروس في الآتي:

أ - أظهرت حملة المقاطعة مدى حب المسلمين للرسول الكريم ﷺ الذي يدل على صدق الإيمان ورسوخ العقيدة.

ب - أظهرت المقاطعة جدوى التحرك الشعبي الكامل الذي بدأ قبل أن تتحرك الأجهزة الرسمية.

ج - أظهرت حملة المقاطعة مدى إمكانية توحيد المسلمين في جميع الدول حول قضية ما.

د - لأول مرة في التاريخ الحديث يهتم الغرب بالمسلمين وبكلمتهم ، ففي كثير من المشكلات والقضايا التي تسيء إلى المسلمين عقدت اجتماعات للقمّة على مستوى الرؤساء صدرت قرارات تشجب هذه التصرفات المسيئة للمسلمين، ومع ذلك لم يلتفت الغرب أو المنظمات الدولية لها مما يدل على ذهاب ربح المسلمين بالتعبير القرآني، أما في قضية المقاطعة نتيجة الرسوم المسيئة للرسول (والتي قامت بها الشعوب الإسلامية، فإن الكل تنبه إلى خطر ذلك وبدأوا يراجعون مواقفهم من الإسلام والمسلمين وعادت ربح المسلمين قوية مؤثرة نظراً لما ساندتها من إجماع وتوحد للمسلمين في وجه الحملة وصدق الله الكريم إذ يقول: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

هـ - لأول مرة يقدم الغربيون اعتذارات عن إساءة وجهة للمسلمين ويمثلون بها صفحات الجرائد.

و - لقد أوجعت المقاطعة الاقتصاد الدنماركي رغم قوته، أما الادعاء بأن صادرات الدنمارك للعالم العربي ١,٧ مليار دولار فقط من حجم صادرات الدنمارك التي تبلغ ٧٦ مليار دولار، فينتطوي على مغالطات عدة، لأن الأمر لا يقتصر في التعامل

على السلع التي ترد من الدنمارك وإنما الكثير من هذه السلع ينتج بواسطة شركات دنماركية في العالم العربي من خلال أسلوب الاستثمار المباشر، هذا فضلاً عن بيع حق الترخيص والاسم التجاري الذي يفوق أضعاف الواردات منها.

ز - للعلم فإن الاقتصاد الدنماركي يعتمد بالدرجة الأولى على إنتاج السلع الغذائية وخاصة منتجات الألبان وعلى إنتاج وتسويق المواد الفنية الإباحية فهم أكبر منتجين لأفلام الجنس في العالم ولا يوجد لديهم إنتاج سيارات أو معدات ولا إنتاج ملابس متميزة ولا أجهزة كهربائية، وبالتالي فإن الاستغناء عن التعامل معهم لا يضر اقتصادياتنا، وتوجد بدائل محلية ومن دول أخرى للسلع المستوردة منهم.

ح - يلزم تفعيل المقاطعة واستمرارها حتى يتحقق الردع الكافي لكل من تسول له نفسه الاعتداء على الرسول ﷺ وعلى الإسلام والمسلمين، فإذا كانت الاعتذارات - رغم عدم كفايتها - قد أظهرت اعترافهم بالخطأ في حق الرسول ﷺ عن ما حدث، فإنه لضمان عدم حدوث ذلك مستقبلاً يلزم بيان قوة المسلمين ووحداتهم وذلك بإنشاء تنظيم شعبي على مستوى العالم الإسلامي موازياً للمنظمات الرسمية لمساندتها في الدفاع عن الإسلام ومقدساته وأن يكون لهذا التنظيم الشعبي فروع في جميع أقاليم العالم الإسلامي ويتم التنسيق والتكامل بينهما.

ط - من جانب آخر فإنه يلزم العمل على توضيح صورة الإسلام السمحة وسيرة الرسول الكريم (من خلال وسائل الإعلام الحديثة وباللغات العالمية، واقترح في هذا المجال ما يلي:

١ - إعادة طباعة ونشر الكتب والمقالات التي كتبها علماء ومفكرون غربيون عن الإسلام في موضوعية وتجرد وهي كثيرة جداً.

٢ - شراء حق بث مواد تليفزيونية في تليفزيونات العالم وشراء حق النشر في صفحاته من جرائدهم واستقدام العلماء والمفكرين الغربيين المنصفون ليتحدثوا فيها عن الإسلام ومحاسنه، إلى جانب من أسلم من قادة الفكر

وكبار الساسة الغربيون وهم كثير الذين أسلموا ليحكموا عن «لماذا أسلموا».

ى - يلزم تكاتف الجهود رسمياً وشعبياً لإصدار اتفاقية من الأمم المتحدة بتحريم الاعتداء على المقدسات الدينية.

هذه نظرة سريعة بينا فيها معنى المقاطعة وفعاليتها وموقف الإسلام منها والدروس المستفادة منها، وهى فى نفس الوقت دعوة لاستمرار المقاطعة حتى يرتدع من يفكرون فى الاعتداء على الإسلام ومقدساته ويسود الاحترام المتبادل بين الشعوب.

والله الموفق،،
